

الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل

[398] وكانوا يقولون: إن عنصرنا أسمى من عنصر العرب، ونحن المؤهلون لحمل الرسالة لا غيرنا، لأن العرب أهل أوثان. وكانوا يدعون أحيانا أنهم أبناء الله وأن الجذّة لهم لا غيرهم. القرآن يردّ على كلّ هذه الأقاويل ويقول: (أَتَدْعَا جُوزَئًا فِي اللَّهِ وَهَؤُلَاءِ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ؟). فالله سبحانه ليس ربّ شعب أو قبيلة معينة، إنه ربّ العالمين. واعلموا أيضاً أن لا امتياز لأحد على غيره إلاّ بالأعمال، وكل شخص رهن أعماله (وَلَدَنَا أَهْمَالُنَا وَلَدَكُمْ أَهْمَالُكُمْ). مع فارق، هو إن كثيراً منكم يشركون في توحيدهم: (وَنَدْعُو لَهْمُ مُخْلِصُونَ). الآية التالية تجيب على واحد آخر من هذه الإدعاءات الفارغة وتقول: (أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى؟) ثم تجيب الآية عن هذا الإدعاء بشكل رائع فتقول: (قُلْ هَؤُلَاءِ زُتُمُ أَهْلَئِمُ أَمْ إِيَّاهُ؟) فالله أعلم أنهم ما كانوا يهوداً ولا نصارى. وقد تعلمون أنتم أيضاً أن هؤلاء الأنبياء أدّوا رسالتهم قبل موسى وعيسى. وإن كنتم لا تعلمون فاطلاق مثل هذه الأقوال بدون علم وتثبيت تهمة وذنّب، وكتمان للحقيقة (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ). اعلموا أنه (وَمَا إِيَّاهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ). حين ينتهج الإنسان خط العناد واللجاج فإن إعراضه عن الحقيقة لا حدّ له، ينكر أبسط المسلّمات، ويرفض أوضح الواضحات. والآية تذكر نموذجاً لذلك في هذه المجموعة التي بلغ بها العناد واللجاج أن تعتبر أنبياء الله – الذين سبقوا موسى وعيسى من أمثال إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب – من اليهود أو النصارى. وبذلك يكتمون حقيقة واضحة لها إرتباط بإيمان الناس ومعتقداتهم، ولذلك يصف